الزوج

حق المرأة:

الكلام عن زوج يستدعى الكلام عن مكانة امرأة عند رجل، وعن مكانة النساء عامة عند الرجال عامة.

وإنما تعرف مكانة المرأة التى وصلت إليها بفضل محمد ودينه، متى عرفت مكانة المرأة التى استقرت عليها فى الجاهلية، ومكانة المرأة التى استقرت عليها فى عصره - وبعد - بين أمم أخرى غير الأمة العربية..

وقياسان اثنان كافيان لبيان الفارق البعيد بين ما كانت عليه المرأة فى الجاهلية وما صارت إليه بعد رسالة محمد.

كانت متاعا يورث تقسيم السوائم بين الوارثين، فأصبحت بفضل الإسلام ونبيه صاحبه حق مشروع، ترث وتورث ولا يمنعها الزوج، أن تتصرف بمالها وهى فى عصمته كما تشاء.

وكانت وصمة تدفن فى مهدها فرارا من عار وجودها، أو عبئا تدفن فى مهدها من فرارا من نفقة طعامها فأصبحت إنسانا مرعى الحياة ينال العقاب من ينالها بمكروه. ولم تكن فى البلاد الأخرى بأسعد حظا منها فى البلاد العربية.

فلا نذكر شرائع الرومان واستبعادها النساء. ولا نذكر المتنطسين فى صدر المسيحية وتسجيلهم عليها النجاسة وتجريدهم إياها من الروح. وكفى أن نذكر عصر الفروسية الذى قيل فيه إنه هصر المرأة الذهبى بين الأمم الأوربية، وإن الفرسان كانوا يفدون النساء بالدم والمال.

الفروسية عصر الحصان لا المرأة:

فهذا العصر كان كما قال الدارسون له: عصر الحصان قبل أن يكون عصر المرأة أو عصر "السيدة المفداة".

وقد أجـمله جون لا نجـدون دافيز صـاحب "التاريخ الموجـز للنساء(١) فقال: إن عـصر الفروسيـة كان معروفـا بما لحظ فيه من فقدان الـشباب على الجملة الاهتمام بالجنس الآخر ولعنا نقلل من الدهشة لذلك لو أننا وعينا كلمة الفروسية وذكرنا أنها لم تكن ذات شأن بالسيدات كما كانت ذات شأن بالخيل على خـلاف ما يروق الكثـيرين أن يذكروه فـقلما بلغ الاهـتمام بالمرأة مـبلغ الاهتمام بالحصان فى عصر الفروسية إلا على اعتبار أنها عنوان ضيعة

إلى القارئ مـحادثة من كـتاب أغـانى الآداب والتحـيات Chanson de Geste يروى فيهـا أن ابنة أوسيس Auseis جلست فى نافذتها ذات يوم فـعبر بها فـتيان - همـا جاران وجربرت وقـال أحدهما "انظـر. انظر يا جربرت: وحق العذراء ما أجملها من فتاة! فلم يزد صاحبه على أن قال: يا لهذا الجواد من مخلوق جميل! . . دون أن يلتفت بوجهه . . وعاد صاحبه على أن قال: يا لهـذا الجواد من مـخلوق جمـيل! . . دون أن يلتفت بوجـهه . . . وعـاد صاحبه يقول مرة أخرى: "ما أحـسبنى رأيت قط فتاة بهذه الملاحة. ما أجمل هاتين العينين السوداوين!" وانطلقنا وجربـرت يقول له "ما أحسب أن جواداً قط يماثل هذا الجـواد" وهى حادثة صغـيرة ولكنها واضـحة الدلالة، إذ قلة الاهتمام تورث الازدراء . . . والحـق أن عصر الفروسيـة يرينا بعض الشواهد الواضحة على هـذا الازدراء . . وإليك مثلا حادثة فى الكتـاب المتقدم يروى فيها أن الملكة بلانشفلور ذهبت إلى قرينها الملك بين Pepin تسأله معونة أهل اللورين. فأصغى إليها الملك ثم استشاط غـضبا ولطمها على أنفها بجمع يده فسـقطت منه أربع قطرات من الدم وصاحت تقـول: "شكرا لك. إن أرضاك هذا فأعطنى ن يدك لطمة أخرى حين تشاء".

ولم تكن هذه حادثة مفردة لأن الكلمات على هذا النحو كثيرا ما تتكرر كأنها صيغة محفوظة، وكأنما كانت اللطمة بقبضة اليد جزاء كل امرأة جسرت فى عهد الفروسية على أن تواجه زوجها بمشورة.

(1) Short History Of Women By John Langdon Davies

"... ومتى كانت المرأة تزف إلى زوجها عفو الساعة وكثيراً ما تزف إلى رجل لم تره قبل ذاك، إما لتسهيل المحالفات الحربية والمدد العسكرى، أو لتسهيل صفقة من صفقات الضياع. ومتى كانت بعد زفافها إلى فارس مجنون بالحرب معطل الذكاء قد يكون فى معظم الأحوال من الأميين - عرضة كلما واجهته بمخالفة - أترى سيدة القصر إذن واجده لها رحمة أو ملاذ من حياة الشقاء أو من صحبة قرين لبس لها بأهل؟".

***

وعصر أوروبا الحديث:

ولقد تقدم الزمن فى الغرب من العصور المظلمة إلى عصور الفروسية إلى ما بعدها من طلائع العصر الحديث ولما تبرح المرأة فى منزلة مسفة لا تفضل ما كانت عليه فى الجاهلية العربية، وقد تفضلها منزلة المرأة فى تلك الجاهلية..

ففى سنة ١٩٧٠، بيعت امرأة فى أسواق انجلترا بشلنين لأنها ثقلت بتكاليف معيشتها على الكنيسة التى كانت تؤويها..

وبقيت المرأة إلى سنة ١٨٨٢، محرومة حقها الكامل فى ملك العقار وحرية المقاضاة.

وكان تعلم المرأة سبة تشمئز منها النساء قبل الرجال، فلما كانت اليصابات بلا كويل تتعلم فى جامعة جنيف سنة ١٨٤٩ - وهى أول طبيبة فى العالم كان النسوة المقيمات معها يقاطعنها ويأبين أن يكلمنها، ويزوين ذيولهن من طريقها احتقارا لها كأنهن متحرزات من نجاسة يتقين مساسها.

ولما اجتهد بتضهم فى إقامة معهد يعلم النساء الطب بمدينة فلادلفيا الأمريكية أعلنت الجماعة الطبية بالمدينة أنها تصادر كل طبيب يقبل التعليم بذلك المعهد وتصادر من يستشير أولئك الأطباء.

وهكذا تقدم الغرب إلى أوائل عصرنا الحديث ولم تتقدم المرأة فيه تقدما يرفعها من مراغة الاستعباد التى استقرت فيها من قبل الجاهلية العربية.

فماذا صنع محمد؟ وماذا صنعت رسالة محمد؟

* * *

المرأة فى الإسلام:

حكم واحد من أحكام القرآن الكريم أعطى المرأة من الحقوق كفاء ما فرض عليها: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وحكم آخر من أحكامه العالية، أمر المسلم بإحسان معاشرتها ولو مكروهة غير ذات عند زوجها: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وأباح لها الدين فى الجهاد أن تكسب كما يكتسب الرجال: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢].

ولم يفضل الرجل عليها إلا بما كلفه من واجب كفالتها وإقامة أودها والسهر عليها..

أما محمد فقد جعل خيار المسلمين خيارهم لنسائهم: "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم".

وأمر بمدارة ضعفها ونقصها لأن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمعت بها استمعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها".

وأوجب على الرجال أن يتجمل لامرأته ويبدو لها فى المنظر الذى يروقها، فقال عليه السلام مما قال فى هذا المعنى وهو كثير: "اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا وتنظفوا، فإن بنى إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم".

وأوجب على الرجل إذا خطب امرأة أن يظهرها على عيبه إن كان به عيب مستور: إذا خطب أحدكم المرأة وهو يخضب بالسواد فليعلمها أنه يخضب" . .

وبلغ من رعاية شعورها ومداراة خجلها الذى فطرت عليه أنه أوجب على الرجل أن يمتعها كما تمتعه لأنها لا تطلب لنفسها ما يطلبه الرجل منها: "فإذا جامع أحدكم أهله فليصدقها ثم إذا قضى حاجته قبل أن تقضى حاجتها فلا يعجلها حتى تقضى حاجتها".

وكان تأديبه المسلمين فى هذه الصلة غاية فى الكياسة والترفق، فقال مما قال فى هذا المعنى: "إذا دخلت ليلا فلا تدخل على أهلك حتى تستحد المغيبة وتمشط الشعنة. . الكيس، الكيس!".

* * *

معاملته لزوجاته:

وإنما نلخص ما أوجبه النبى على المسلمين عامة فى معاملاتهم لزوجاتهم، وهى دون ما أوجبه على نفسه فى معاملة زوجاته بكثير.

فكان يشفق أن نرينه غير باسم فى وجوههن، ويزورهن جميعا فى الصباح والمساء، وإذا خلا بهن "مان ألين الناس ضحاكا بسامًا:" كما قالت عائشة رضى الله عنها.

ولم يجعل من هيبة النبوة شدا رادعا بينه وبين نسائه، بل أنساهن برفقة أنهن يخاطبن رسول الله فى بعض الأحايين. فكانت منهن من تقول له أمام أبيها: "تكلم ولا تقل إلا حقا. . ." ومن تراجعه أو تغاضبه سحابة نهاراها، ومن تبلغ فى الاجتراء عليه ما يسمع به رجل كعمر بن الخطاب فى شدته، فيعجب له ويهم بأن يبطش بابنته حفصة لأنها تجترئ كما يجترئ الزوجات

الأخريات. وإذا رأى النبى غضبا كهذا من جرأة كتلك كف من غضب الأب وقال له: ما لهذا دعوناك!

وقد كان يتولى خدمة البيت معهن، أو كما قال: "خدمتك زوجتك صدقة"..

وكان يستغفر الله فيما لا يملك من التسوية بين إحداهن وسائرهم وهو ميل قبله:

"اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك"

ولما أقعده مرض الوفاة أن يزورهن كل يوم كما عودهن بعث إليهن فتلطف فى سؤالهن: "أين أنا غدا؟" ليلقن عند عائشة ويأذن له فى الإقامة ببيتها. ولو أنه أحل لنفسه أن يقيم حيث أقام وهو مريض لما كان فى ذلك من حرج.

* * *

حديث الإفك:

والمعاملة الطيبة فى الزمن الطويل خلق نادر بين الناس، ولكنه فى حالة الرضى خلق لا يشق على كثيرين.

إلا أن الخلق الذى يشق فهمه على الأكثرين وهو طيب المعاملة عندما تتعرض الحياة الزوجية لأخطر ما يمسها من خطر وهو المساس بالوفاء فى هذه الخصلة تتسامى الحضارة الحديثة ما تتسامى فلا نخالها تحلم بمعاملة أطيب ولا أكرم من المعاملة التى أثرت عن النبى فى قصة عائشة بنت الصديق وهى أحظى نسائه لديه، ونلخصها مما روته بلسانها إذ تقول رضى الله عنها:

"... وكان رسول الله إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه، فأيها خرج سهمها خرج بها رسول الله معه. وأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها

سهمى، ثم قفلنا من الغزوة إلى أن دنونا من المدينة، فقمت حين آذنوا بالرحيل فتمشيت حتى جاوزت الجيش وقضيت من شأنى، وأقبلت إلى الرحل فلمست صدرى فإذا عقدى قد انقطع، فرجعت ألتمسه فحبسنى ابتغاؤه. وأقبل إلى الرهط الذين كانوا يرحلون لى[1] فحملوا هودجى وهم يحسبون أنى فيه وكانت النساء إذ ذاك خفافا لم يبلهن[2] ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه إذ كنت مع ذلك جارية حديثة السن.

"ووجدت عقدى فجئت منازل الجيش وليس بها داع ولا مجيب فتيممت منزلى الذى كنت فيه وظننت أن القوم سيفتقدوننى فيرجعون إلى.

"فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمى قد عرس من وراء الجيش فأدلج[3] فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم فعرفنى حين رآنى واسترجع فاستيقظت وخمرت وجهى بجلبابى، والله ما يكلمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته وركبتها وانطلق يقودها حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا فى نحر الظهيرة[4].

"فهلك من هلك فى شأنى، وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أبى بن سلول..

"واشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا والناس يفيضون فى قول أهل الإفك ولا أشعر بشىء من ذلك"

"... ويريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى. إنما يدخل رسول الله فيسلم ثم يقول: كيف

---

(١) أى يحملون الرحل على البعير.

(٢) يثلقهن اللحم والشحم.

(٣) سار آخر الليل.

(٤) أى فى شدة الحر.

تيكم؟ فذاك يريبنى ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت وخرجت معى أم مسطح قبل المناصع[1].

"ثم عدنا فعثرت أم مسطح فى مرطها، فقالت: تعس مسطح!

"قلت: بئس ما قلت! أتسبين رجلا قد شهد بدرا؟

"قالت: أى هنتاه[2]! أو لم تسمعى ما قال؟

"قلت: وماذا قال؟

"فأخبرتنى بقول أهل الإفك، فازددت مرضا إلى مرضى فلما رجعت إلى بيتى فدخل على رسول الله فسلم. ثم قال: كيف تيكم؟ استأذنت أن آتى أبوى: أريد أن تيقن الخبر من قبلهما، فأذن لى.

"قالت أمى: يا بنية هونى عليك. فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثرن عليها.

"قلت: سبحان الله! وقد تحدث الناس بهذا؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا اكتحل بنوم.

"ودعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب وأسامة بن يزيد يستشيرهما فى فراق أهله. فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله بالذى يعلم من براءة أهله، وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الود، وقال لرسوله الله: هم أهلك ولا نعلم إلا خيرا.

"وأما على بن أبى طالب فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك.

"فدعا رسول الله بريرة يسألها: هل رأيت من شىء يريبك من عائشة؟

---

(١) أماكن فى خلاء المدينة، يتجمع الناس فيه بمكائد الناس.

(٢) كأنها تنعى عليها طيبتها وقلة معرفتها بمكائد الناس.

obeikandi.com

قالت: والذى بعثك بالحق إن رأيت عليها أمـرا قد أغمضه[1] عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتى الداجن[2] فتأكله.

"... وبكيت يومى ذلك لا يرقـأ لى دمع ولا اكتـحل بنوم ثم بكيت ليلتى المقـبلة لا يـرقأ لى دمـع اكتـحل بنوم، وأبـواى يظنان أن البكاء فـالق كبدى.. "فـبينا نحن على ذلك دخل رسول الله فسلم ثـم جلس وتشهد ثم قال: أمـا بعد يـا عائشـة فإنى قـد بلغنى عنك كذا وكـذا. فإن كنت بريـئة فسيبرئك الله، وإن كانت ألمت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب الله عليه.

"فلما قـضى رسول الله مقالتـه قلص دمعى حتى مـا أحسن منه قطرة فقلت لأبى: أجب عنى رسـول الله! فقال: والله ما أدرى مـاذا أقول لرسول الله.

"فقلـت لأمى: أجبنى عنى. فـقالت كـذلك والله ما أدرى مـاذا أقول لرسول الله.

"قلت- وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن - إنى والله لقد عرفت أنكم سمعتم بهذا حتى استقر فى نفوسكم وصدقتم به: فإن قلت لكم إنى بريئة، والله يعلم أن بريئة، لتصدقونى، وإنى والله ما أجد لى ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.

"ثم تحولت فاضطجعت على فراشى.

"... . فو الله مـا رام رسول الله مجلسه ولا خـرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عـز وجل على نبيه فأخذه ما كان يأخـذه من البرحاء عند الوحى، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان[3] من العرق فى اليوم الشاتى.

(١) عيبه.

(٢) أى حيوان الذى يألف البيت.

(٣) الدر.

"فلما سرى عن رسول الله وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها أن قال: "أبشرى يا عائشة!.. أما الله فقد برأك.

قالت لى أمى: قومى إليه.

"قلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، هو الذى أنزل براءتى.. وكان أبو بكر ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره.. فأقسم ألا ينفق عليه شيئا أبدا. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢].

"فقال أبو بكر: والله إنى لأحب أن يغفر الله لى، ورجع إلى مسطح النفقة التى كانت ينفقها عليه".

***

تلك هى القصة التى عرفت بقصة الإفك كما روتها لنا السيدة عائشة رضى الله عنها. وهى مسبار صادق يسير لنا أغوار المروءة والرفق فى معاملة النبى لزوجاته حيث لا رفق ولا مروءة عند الأكثرين. فليس النبى هنا فى حالة من حالات الرضى التى تسلس الطباع ولا تستغرب معها المودة وطول الأناة، ولكنه فى حالة من تلك الحالات التى تثير الحمية وتثير الحب وتثير النقمة وتثير فى النفس البشرية كل ساكنة تدعو إلى طيب المعاملة، فلم يكن فى هذه الحالة إلا كرما خالصا بما سلك فى أمر نفسه وفى أمر أهله وفى أمر دينه، ولم يدع لحاكم من حالمى الحضارة الحديثة مرتقى يتطلع إليه فى جميع هذه الغايات.

سمع النبى حديثا يلاك بين المنافقين ويسرى إلى المسلمين بل إلى خاصة ذويه الأقربين: حديثا يسمعه رجل معلى بن أبى طالب فى بره وكرم نحيزته فلا يرى بعده حرجا من الطلاق والنساء كثيرات.

سمع النبى ذلك الحديث المريب فلم يقبله بغير بينة ولم يرفضه بغير بينه، وكان عليه أن يعود زوجته المريضة أو يجفوها إلى حين. فعادها وبه من الرفق والإنصاف ما يأبى عليه أن يفاتحها فى مرضها بما يخامر نفسه الكريمة، وبه من الموجدة والترقب ما أبى عليه أن يقابلها به والنفس صافية كل الصفاء وظل يسأل عنها سؤال متعتب ينتظر أن تشفى وأن تأتيه البينة فيشتد كل الشدة أو يرحم كل الرحمة، ولا يعجله لغط الناس أن يأخذ فى هذا الموقف الأليم بما توجيه الحمية وما توجبه المروءة فى آن.

وسأل من ينبغى أن يسأل: عليا وأسامة وهما بمقدام ولديه، وبريرة الجارية التى تعرف عائشة وتخلص لسيدها كما تخلص لسيدتها، وضرة لعائشة تنافسها وتكاد أن تضارعها فى حظوتها لديه: زينب بنت جحش التى كانت أسرع من يقول لو علمت شيئا يقال: فاستعاذت بالله وقالت: "أحمى سمعى وبصرى، والله ما علمت إلا خيرا".

واتصل الحديث عائشة فاستأذنته فى زيارة أهلها، وآن له أن يفاتحها وقد وصل النبأ إلى سمعها ولم يئن له قبل ذلك وهو كاظم ما فى فؤاده قادر على كتمانه مخافة أن يؤذيها بغير حق وهى تشكو سقامها.

فافتحها لتبرئ نفسها أو تستغفر الله.

وغضبت البرىء المشكوك فيه، وإنها لبريئة فى نظر كل منصف يفهم أن امرأة كعائشة لا تعرض نفسها لهذه الريبة أمام جيش، وفى وضح النهار، ولغير ضرورة، ومع رجل من المسلمين يتقى ما يتقيه المسلم تترفع عنها من هى أقل من عائشة منبتا ومنزلة وخلقا وأتفه، فكيف بها فى مكانها الملعوم.

إلا أن النبى أراد لها البراءة أمام الخلق عامة وأمام نفسه المحبة، حذر أن تكون تبرئته إياها عن محبة وضعف لا عن تبين واستيثاق، فلما قضى كل حق وانتهى به الاستيثاق إلى الثمة كان قد وفى الكرم والحمية والإنصاف والرحمة أجمعين.

نعم وفى الرحمة حتى باللاغطين المتعجلين الذين أبدؤوا وأعادوا فى ذلك الحديث المريب. وما أحد أرحم ممن يرحم المفترين على سمعة أهله وهناءة بيته وأمان سربه، ولا يعذر الناس أحدا كما يعذرون نبيا مطاعا ينال فى عرضه فينال بالعقاب العدل من استحقوه.

* * *

سماحة الكريم:

ولقد علمنا من وراية السيدة عائشة كما علمنا من روايات شتى أن عبد الله بن أبى بن سلول كان أكبر اللاغطين بحديث الإفك عن سوء نية وكيد ميت للنبى ودينه، وكان هذا الرجل كما تقدم فى بعض فصول هذا الكتاب بغيضا إلى المسلمين متهما عندهم يتوجسون منه ويسمونه رأس المنافقين ولا يكفون عن طلب دمه واستئذان النبى فى قتله فما ضر النبى لو خلى بين المسلمين وبينه ويحاسبونه على فريته ويحاسبونه على كيده وينتقمون لعرض النبى منه ليأمنوا شره ويجلعوه عبرة لغيره؟

وإذا قيل إن بعد الله بن أبى كان من أصحاب العصبية التى يحسب حسابها وتتقى بوادرها، فماذا يقال فى مسطح وهو مكفول أبى بكر وصنيعته الذى يأكل من ماله؟ ما الذى أنجاه من السخط والعقاب وكفل له دوام البر والمعونة لولا سماحة النبى وسماحة أبى بكر وسماحة القرآن.

على أن العصبية التى كان عبد الله بن أبى يلوذ بها لم تكن لتحميه عقاب النبى لو أراده بعقاب ولو كان أصرم عقاب، فما من عصبية هى أقرب إلى رحم الرجل وأولى بالذود عنه ولده المشهور ببره. وقد أسلفنا أن ولد عبد الله قد تطوع لقتله يوم قيل له إن النبى يهدر دمه ويقضى بموته..

إنما هى سماحة الكريم..

إنما هى السماحة التى شملت مسطحا كما شملت كبير المنافقين

وخرجت من حديث الإفك كله بالعفو عن جميع المسيئين مخلصين فى الرأى وغير مخلصين، وهى التى سبرت غورا فى قصة هذا الحديث فتكشف عن أطيب معاملة للزوجات فى أحرج الحالات، وتلك هى المعاملة الطيِّبة فى مثلها الأعلى، معاملة لا تتبدل بعد أيام وشهور بل تطول مدى السنين، وتطول مدى السنين مع نشاء مختلفات لا مع امرأة واحدة، وتطول فى جميع الحالات ومنها حالة الألم البالغ ولا تنحصر فى حالة الرضى والطمأنينة وأقل من ذلك أمنية يتمناها الحالمون بالوئام بين الأزواج فى العصر الحديث بعصر المرأة، لفرط ما أطنب فيه المطنبون من إكبار شأنها والدعوة إلى إنصافها.

* * *

تعدد الزوجات:

هنا يعرض لنا الكلام عن تعدد زوجات النبى وهو الهدف الثانى الذى يرميه المشهرون بالإسلام فيكثرون من رميه كلما تكلموا عن أخلاق محمد ﷺ وذكروا منها ما يزعمونه منافيا لشمائل النبوة، مخالفا لما ينبغى أن يتصف به هداة الأرواح.

السيف والمرأة!..

كأنهم يريدون أن يجمعوا على النبى بين الاستسلام للغضب والاستسلام للهوى، وكلاهما بعيد من صفات الأنبياء.

أما السيف فقد أسلفنا الكلام فيه.

أما المرأة فالظنة فيها أضعف من الظنة فى السيف على ما نراه، لأن الاستسلام للشهوة آخر شىء يخطر على بال الرجل المحقق - مسلما كان أو غير مسلم - حين يبحث فى تعدد زوجات النبى، وفيما يدل عليه ذلك التعدد، وفيما اقتضاه.

قال لنا بعض المستشرقين أن تسع زوجات لدليل على فرط الميول

الجنسيـة.. قلنا إنك لا تصف السيد المسـيح بأنه قاصر الجنسـية Undersexed لأنه لم يتزوج قط، فـلا ينبغى أن تصف مـحمدا بأنـه مفرط الجنسـية Over-dexed لأنه جمع بين تسع نساء.

ونحن قـبل كل شيء لا نرى ضيـرا على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمتعـتها. هذا سواء الفطرة لا عيب فيـه، وما من فطرة هى أعمق فى طبائع الأحياء عامة من فطرة الجنسين والتقاء الذكر والأنثى، فهى الغريزة التى تلهم الحى فى كل طبقة من طبقات الحياة ما لا تلهمه غريزة أخرى أرأيت إلى السـمك وهو يعبـر الماء الملح فى موسـمه المعلوم فـيطوى ألوفا من الفـراسخ ليصل إلى فرجـة نهر عذب يجدد فيهـا نسله ثم يعود أدراجه؟.. أرأيت إلى العصفور وهو يبتنى عـشه ويعود من هجرته إلى وطنه؟ أرأيت إلى الزهر وهو يفتح ليغرى الطير والنحل بنقل لقاحه؟ أرأيت إلى سنة الحياة فى كل طبقة من طبقات الأحياء؟ مـا هى سننها إن لم تكن هى سنة الألفة بين الجنسين؟ وأين يكون سواء الفطرة إن لم يكن على هذا السواء؟

فحب المرأة لا معابة فيه..

هذا هو سواء لا مراء..

وإنما المعابة أن يطغى هذا الحب حـتى يخرج عن سوائه، وحـتى يشغل المرء عن غـرضـه، وحـتى يكلفـه شططا فى طلابه عـند ذلك مـسخ للفطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور فى جميع الطباع..

فـمن الذى يعلم مـا صنع النبى فى حـيـاته ثم يقع فى روعـه أن المرأة شغلته عن عمل كبير أو عن عمل صغير؟

من من بناة التاريخ قد بنى فى حيـاته وبعد مماته تاريخا أعظـم من تاريخ الدعوة المحمدية والدول الإسلامية؟

ومن ذا الذى يقول إن هذا عمل رجل مشغول؟

عم شغلته المرأة؟ ومن ذا نفـرغ لعظيم من المسعى فبلغ فيه شـأو محمد فى مسعاه؟

فإن كـانت عظمة الرجل قد أتاحت لـه أن يعطى الدعوة حقـها ويعطى المرأة حقـها فالعظمة رجـحان وليست بنقص، وهذا الاسـتيفاء السليم كـمال وليس بعيب. ورسالة محمد إذن الرسالة التى يتلقاها أناس خلقوا للحياة ولم يخلقوا نابذين لها ولا منبوذين منها. فليـست شريعة هؤلاء بالشريعة المطلوبة فيما يخاطب به عامة الناس فى عامة العصور.

وأعجب شيء أن يقـال عن النبى إنه استسـلم للذات الحس وقد أوشك أن يطلق نساءه أو يخيرهن فى الطلاق لأنهـن طلبن إليه المزيد من النفقة وهو لا يستطيعها.

فقد شكون - على فخورهن بالانتماء إليه - أنهن لا يجدن نصيبهن من النفقـة والزينة، واجتمـعت كلمتهن على الشكوى واشـتددن فيهـا حتى وجم النبى وهم بتسريحهن، أو تخييرهن بين الصبر على معيشتهن والتسريح.

وذهب إليـه أبو بكر يوما "يسـتأذن عليـه وجد الناس جلوسـا لا يؤذن لأحد منهم ثـم دخل أبو بكر وعمر من بـعده، فوجـدا النبى جالسـا وحوله نساؤه واجـما سـاكنا. فأراد أبو بكر أن يقـول شيئـا يسرى عنه، فـقال: "يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة! سألتنى النفقة فـقمت إليها فوجأت عنقها" فضحك رسول الله وقال: "هن حولى كمـا ترى يسألننى النفقة!.. فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها وقام عمـر إلى حفصة يجأ عنها ويقولان: "تسألن رسول الله ما ليس عنده؟".

فقلن: "والله لا نسأل الله شيئا رسول الله أبدا ليس عنده" ثم اعتزلهن الرسول شهـرا أو تسعة وعشـرين يوما فنزلت بعدها الآية التى فـيها التخـيير وهى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ

وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

فبدأ الرسول بعائشة فقال لها: "يا عائشة!.. إنى أريد أن أعرض عليك أمرا أحب ألا تتعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك.."،

قالت: "وما هو يا رسول الله؟" فتلا عليها الآية..

قالت: "أفيك يا رسول الله أستشير أبوى؟.. بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة.." ثم خير نساءه كلهن فأجبن كما أجابت عائشة، وقنعن بما هن فيه من معيشة كان كثير من زوجات المسلمين يظفرون بما هو أنعم منها.

علام يدل هذا؟

نساء محمد يشكون قلة النفقة والزينة ولو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقعن فى الحرير والذهب وأطايب الملذات.

أهذا فعل رجل يستسلم للذات حسه؟

أما كان يسيرا عليه أن يفرض لنفسه ولأهله من الأنفال والغنائم ما يرضيهن ولا يغضب المسلمين، وهم موقنون أن إرادة الرسول من إرادة الله؟..

وماذا كلفه الاحتفاظ بالنساء حتى يقال إنه كان يفرط فى ميله إلى النساء؟

هل كلفه أن يخالف ما يحمد من سننه أو يخالف ما يحمد من سيرته أو يترخص فيما يرضاه أتباعه ولا ينكرونه عليه؟

لم يكلفه شيئا من ذلك، ولم يشغله عن جليل أعماله وصغيرها، ولم نر هنا رجلا تغلبه لذات الحس كما يزعم المشهرون، بل رأينا رجلا يغلب تلك الملذات فى طعامه ومعيشته وفى ميله إلى نسائه، فيحفظها بما يملك منها

ولا يأذن لها أن تسومه ضريبة مفروضة عليه، ولو كانت هذه الضريبة بسطة في العيش قد ينالها أصغر المسلمين ولاشك في قدرة النبي عليها لو أراد.

* * *

رجل الجد والرصانة:

وهكذا نبحث عن الرجل الذى توهمه المشهورون من مؤرخى أوروبا فلا نرى إلا صورة من أعجب الصور التى تقع فى وهم واهم.

نرى رجلا كان يستطيع أن يعيش كما يعيش الملوك ويقنع مع هذا بمعيشة الفقراء ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه!!

ونرى رجلا تألبت عليه نساؤه لأنه لا يعطيهن الزينة التى يتحلى نبها لعينه ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه!..

ونرى رجلا أثر معيشته الكفاف والقناعة على إرضاء نسائه بالتوسعة التى كانت فى وسعه ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه!..

ذلك كلام لو شاء المشهورون أن يرسلوه كلاما مضحكا مستغربا لأفلحوا فيما قالوه أحسن فلاح. أو لعله أقبح فلاح!..

ويزيد فى غرابته أن الرجل الذى توهموه ذلك التوهم لم يكن مجهولا قبل زواجه ولا بعد زواجه فيه الظنون ذلك الخبط الذريع.

فمحمد كان معروفًا بين الشباب قبل قيامه بالدعوة الدينية كأشهر يعرف فتى من قريش وأهل مكة.

كان معروفا من صباه إلى كهولته فلم يعرف عنه أنه استسلم للذات الحس فى ريعان صباه، ولم يسمع عنه أنه لها كما يلهو الفتيان حين كانت الجاهلية تبيح ما لا يباح، بل عرف بالطهر والأمانة واشتهر بالجد والرصانة، وقام بالدعوة بعدها فلم يقل أحد من شانئيه والناعين عليه والمنقبين وراءه عن

أهون الهنات: تعالوا يا قوم فانظروا هذا الفتى الذى كان منشأنه مع النساء كيت وكيت يدعوكم اليوم إلى الطهارة والعفة ونبذ الشهوات.. كلا.. لم يقل أحد هذا قط من شانئيه وهم عديد لا يحصى ولو كان لقوله لجرى على لسان ألف قائل.

ولما بنى بأولى زوجاته - خديجة - لم تكن لذات الحس هى التى سيطرت على هذا الزواج لأنه بنى بها وهو فى نحو الأربعين وهو فى نحو الخامسة والعشرية، ونيف على الخمسين وأوتى الفتح المبين وليس له من زوجة غيرها ولا من رغبة فى الزواج بأخرى.

ولم يكن وفاؤه لها بقية حياته وفاء للذات حس أو ذكرى متاع جميل لأنه فضلها على عائشة فى صباها وهى أحب نسائه إليه، عائشة تغار منها فى قبرها فلم يكتمها قط أنه يفضلها عليها.

قالت له مرة: هل كانت إلا عجوزا بدلك الله خيرا منها، فقال لها مغضبا: "لا والله ما أبدلنى الله خير منها.. آمنت بى إذ كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء".

فلهذا أحب خديجة ووفى له وفضلها ولم يمح ذكرها من نفسه قط من أعقبتها من الزوجات الفتيات وفاء قلب وليست لذات حس ولا ذكرى متاع جميل.

***

أسباب تعدد زوجاته:

ولو كانت لذات الحس هى التى سيطرت على زواج النبى بعد وفاة خديجة لكان الأحجى بإرضاء هذه الملذات أن يجمع إليه تسعا من الفتيات الأبكار اللائى اشتهرن بفتنة الجمال فى مكة والمدينة والجزيرة العربية، فيسرعن

عليه راضيات فخورات، وأولياء أمورهن أرضى منهن وأفخر بهذه المصاهرة التى لا تعلوها مصاهرة.

لكنه لم يتزوج بكرا قط غير عائشة رضى الله عنها، ولم يكن زواجه بها مقصودا فى بداية الأمر حتى رغبته فيه خولة بنت حكيم التى عرضت عليه الزواج بعد وفاة خديجة.

قالت عائشة رضى الله عنها: "لما توفيت خديجة قالت خولة بنت حكيم عثمان بن مظعون للنبى: "أى رسول الله!. ألا تزوج؟".

قال: "من؟"

قالت: "إن شئت بكرا وإن شئت ثيبا؟"..

قال: "فمن البكر؟"..

قالت: "بنت أحب الناس إليك عائشة بنت أبى بكر"..

قال: "فمن الثيب؟"..

قالت: "سودة بنت زمعة آمنت بك واتبعتك".

ثم كانت هى أولى النساء اللاتى بنى بهن بعد وفاة خديجة وكان زوجها الأول - ابن عمها - قد توفى بعد رجوعه من الهجرة إلى الحبشة وكانت هى من أسبق النساء إلى الإسلام فآمنت وهجرت أهلها ونجا بها زوجها إلى الحبشة فرارا من إعنات المشركين له ولها فلما مات لم يبق لها إلا أن تعود أهلها فتصبأ وتؤذى، أو تتزوج بغير كفؤ أو بكفؤ لا يريدها. فمضها النبى إليه حماية لها وتأليفا لأعدائه من آلها وكان غير هذا الزواج أولى به لو نظرت إلى لذات حس ومال إلى متاع.

وكانت النبى زوجة أخرى وسمت بالوضاءة والفتاء وهى زينت بنت جحش ابنه عمته ﷺ التى زوجها زيد بن حارثة بأمره وعلى غيره رضى

منها، لأنـها أنفت - وهى ما هى فـى الحسب والقرابة مـن رسول الله - أن يتزوجها غلام عتيق.

هذه أيضا لم يكـن "للذات الحس" المزعومة سلطان فى بنـاء النبى بها بعد تطليق زيد إياها وتعـذر التوفيق بينهـا، ولو كان للذات الحس سلطان فى هذا الزواج لكان أيسر شىء على النبى أن يـتزوجها ابتداء ولا يروضـها على قبـول زيد وهى تأباه فقد كـانت ابنة عمه يراها من طفـولتها ولا يفـائجه من حسنها كان يجـهله يوم غرض عليها زيدا وشدد عليها فى قـبوله. فلما تجافى الزوجان وتكررت شكوى زيد من إعراضها عنه وترفعها عليه واغلاظتها القول له كان زواج النبى بهـا "حلا المشكلة" بيتيـة بين ربيب ففى منزلة الابن وابنة عمة أطاعته فى زوج لم يقرن بالتوفيق.

أما سـائر زوجاته ﷺ فـما من واحـدة منهن - رضى الله عنهن - إلا كان لزواجه بها سبب من المصلحـة العامة أو من المروءة والنخوة دون ما يهذر به المرجفون من لذات الحس المزعومة.

فأم سلمـة كانت كلها مـسنة يوم خطبهـا، كما قـالت له معتـذرة إليه لإعفائه من تكليف نفسـه أن يتزوجها، جبرا لخاطرها بعد مـوت زوجها عبد الله المخزومى من جرح أصابه فى غزوة أحد ولما برح بها الحزن لوفاته واساها رسول الله قائلا: "سلى الله أن يؤجرك فى مصيبتك وأن يخلفك خيرا"..

فقالت: "ومن يكون خيرا من أبى سلمة؟" فأوجب على نفسه خطبتها لأنهـا تعلم أنه خيـر من أبى سلمـة، ولأنه يعلم أن أبا بكر وعـمر خطبـاها فترفقت فى الاعتذار، وهما أعظم المسلمين قدرا بعد النبى ﷺ.

وجويرية بنت الحـارث سيد قـومه كانت إحـدى السبـايا فى غزوة بنى المصطلق فتـزوجها لـيعتقـها ويحض المسلمـين على عتق أسراهم وسـباياهم تفريجا عنهم وتالفا لقلوبهم جميعا وحسن إسلامهم وخيرها أبوها بين العودة إليه والبقاء فى حرم رسول الله فاختارت البقاء فى حرم رسول الله.

وحفصة بنت عمر بن الخطاب مات زوجها فعرضها أبوها على أبى بكر فسكت وعلى وعثمان فسكت وبث عمر أسفه للنبى فلم يكن للنبى ﷺ أن يضن على وليه وصديقه بالمصاهرة التى شرف بها أبا بمر من قبله وقال: يتزوج حفصة من هو خير من أبى بكر وعثمان.

ورملة بنت أبى سفيان تركت أباها لتسلم وتركت وطنها لتهاجر مع زوجها إلى الحبة ثم تنصر زوجها وفارقها وهى غريبة هناك بغير عائل فأرسل النبى إلى النجاشى فى طلبها لينقذها مع ضياع الغربة وضياع الأهل وضياع القرين. فكانت النجدة الإنسانية باعث هذا الزواج ولم يكن له باعث من المتعة والاستزادة من النساء، وكل للنبى مقصد جليل من وراء هذا الزواج الذى لم يفكر فيه حتى ألجأته النجدة إلى التفكير فيه، وهو أن يصل بينه وبين أبى سفيان بآصرة النسب، عسى أن يهديه ذلك إلى الدين، بما يعطف من قلبه ويرى من كبريائه.

وكان إعزاز من ذلوا بعد عزة: سنة النبى ﷺ فى معاملة جميع الناس ولاسيما النساء اللاتى تنكسر قلوبهم فى الذل بعد فقد الحماة والأقرباء، ولهذا خير صفية الإسرائيلية سيدة بنى قريظة بين أن يلحقها بأهلها وأن يعتقها ويتزوج بها، فاختارت الزواج منه ﷺ وآية الآيات فى رعاية الشعور الإنسانى أنه ﷺ أنب صفيه بلالا لأنه مر وبابنة عمها على قتلى اليهود. فقال له مغضيا: "أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما؟" واحتقرها زينب فلقبها يوما باليهودية فهجرها شهرا لا يكلمها ليأخذ بناصر هذه الغريبة ويدفع عنها الضيم.

* * *

تتكشف لنا مراجعة الحياة الزوجية لمحمد ﷺ عن هذه الأسباب وشبيهاتها من دواعى اختياره لنسائه واستجماعه لهذا العدد من الزوجات فى حين واحد. .

ولا حرج - كلما أسلفنا على رجل قويم الفطرة أن يلتمس زواجه.

ولكن الذى حدث فعلا أن المتعة لم تكن قط مقدمة فى الاعتبار عند نظر النبى فى اختيار واحدة من زوجاته قبل الدعوة أو بعدها، وفى إبان الشباب أو بعد تجاوز الكهولة.

وآخر صورة يتصورها المنصف هنا هى صورة رجل فزع للذاته وجلس ينتقى واحدة بعد واحدة من الحسان على حسب ما يرجوه عندها من متاع فإنما كان الاختيار كله على حسب حاجتهن إلى الإيواء الشريف أو على حسب المصلحة الكبرى التى تقضى باتصال الرحم بينه وبين سادات العرب وأساطين الجزيرة من أصدقائه وأعدائه، ولا استثناء فى هذه الخصلة لزوجه واحدة بين جميع زوجاته حتى التى بنى بها فتاة بكرا موسومة بالجمال، وهى السيدة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

إلا المشهرين المنقولين نسوا كل حقيقة من حقائق هذه الحياة الزوجية التى سجلت لنا بأدق تفصيلاتها ولم يذكروا إلا شيئا واحدا حرفوه عن معناه ودلالته، ليفتروا على النبى ما طاب لهم أن يفتروه، وذلك أنه جمع فى وقت واحد بين تسع زوجات.

نسوا أنه اتسم بالطهر والعفة فى شبابه فلم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق، فى غير مشقة عندهم ولا معابة.

ونسوا أنه بقى إلى نحو الخامسة والعشرين لم يعتسف فى طلب الزواج الحلال وهو ميسر له تيسره لكل فتى وسيم حسيب منظور إليه بين الأسر وبين الفتيات.

ونسوا أنه لما تزوج فى تلك السن كان زواجه بسيدة فى الأربعين اكتفى بها إلى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين.

ونسوا أنه اختار أحسابا فى حاجة إلى التآلف أو الرعاية ولم يختر جمالا مطلوبا للمتاع.

ونسوا أن الرجل الذى وصفوه من تغليب لذات الحس لم يكن يشبع فى بعض أيامه من خبز الشعير، ولم يجاوز حياة القناعة قط لإرضاء نسائه وإرضاء نفسه، ولو شاء لما كلفه إرضاء نفسه وإرضاؤهن غير القليل بالقياس إلى ما فى يديه.

نسوا كل هذا وهو ثابت فى التاريخ وثبوت عدد النساء اللاتى جمع بينهن عليه السلام.. فلماذا نسوه؟

نسوه لأنهم أرادوا أن يعيبوا وأن يتقولوا وأن ينحرفوا عن الحقيقة، وقد كانت رؤية الحقيقة أيسر لهم من الإغضاب عنها، ولم أنهم أرادوها وتعمدوا ذكرها ولم يتعمدوا نسيانها.

***

الوجهة الخلقية:

ونستطرد إلى تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية فلا نطيل فيه، لأننا نقصر هذا الكتاب على عبقرية محمد وما له اتصال بجوانب هذه العبقرية فى تعدد مناحيها، ولم نرد به أن نتناول حكمة الشريعة الإسلامية فى تفصيلها ولا مسوغات الأصول الدينية على اختلافها.

فأوجز ما نقوله فى تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية أن النبى ﷺ لم يجعله حسنة مطلوبة لذاتها أو مباحا يختاره من يختاره وله مندوحة عنه، وإنما جعله ضرورة يعترف بها الرجل وتعترف بها الأمة فى بعض الأحوال لأنها خير من ضرورات ولن ينكر هذا إلا متعنت يصدم الحقائق ويتجاهل المحسوس الماثل للعيان.

ففى حياة محمد الخاصة لا ينكر أحدا أن بناءه قد كان خيرا من الإخلاء

بينهن وبين التأيم والمذلة والرجعة إلى الكفر والضلالة، وكان خيرا من قطع تلك الآصرة التى وصلت بينه وبين البيوت والعشائر فكان لها ما كان من فضل فى نفع الدين والمتدينين به، وهى ضرورة يلجأ إلى الاعتراف بها كل مسئول عن شئون أمة بل أمم تمارس الحياة الدنيا، وكل إمام عليهم بطبائع الناس.

أما الضرورة الاجتماعية العامة فقد اعترفت بها الشرائع المدنية الحديثة جميعا ثم تحللت منها بإباحة الزنى وعلاج مشكلة الزواج بحل خارج عن نطاق الزواج أو خارج عن نطاق البيت والأسرة. ولو اهتدت هذه الشرائع المدنية إلى حل خير من هذا لجاز لها أن تنكر تعدد الزوجات، وتنكر أنه ضرورة أكرم من ضرورات.

فلاشك أن الجمع بين المرأة العقيم أو المرأة المريضة وبين غيرها أكرم لها وللمجتمع من نبذها فى معترك هذه الدنيا الضروس بغير ولد وبغير زوج وبغير عاصم، ثم هو أكرم للزوج نفسه وهو كائن حى يريد أن يصل ما بينه وبين الحياة بذرية صالحة فى الغرض الأكبر من كل زواج، ولولاها لا نتقض فى المجتمع الإنسانى أساس كل زواج.

ولاشك أن الجمع بين المرأة المزهود فيها وبين زوجة أخرى أكرم لها وأصلح من الجمع بينها وبين خليلة أو عدة خليلات.

ولا شك أن تسهيل الزواج وبخاصة فى أوقات الحروب التى ينقص فيها الرجال أكرم للمجتمع الإنسانى وأصلح من تسهيل العلاقات الأخرى التى لا تنفع الأخلاق، ولا ترفع مكانة المرأة فى عصمة رجل أو فى متناول كثير من الرجال.

هذا شيء جائز.

بل هذا شيء أكثر من جائز، لأنه واقع لا محيد عنه ولا حيلة فيه

وغير ملوم من يواجهه بحل أكرم من حلول شتى، بل اللوم عليه أن ينظر فى شئون العالم ثم يغمض عينيه عن حقائقه التى تصدم كل عين.

ومن السهل - على من أراد - أن يسوس العالم فى خياله بالفضائل التى تروقه وترضيه.. وليس من السهل عليه أن يخلق العالم الذى يساس له يرضى بها ارتضاه وقد علم هذا كل رجال واجهته مشكلة واحدة من المشكلات التى واجهت محمدا بادئ على غير مثال سابق يحتذيه، إلا ما ألهمه الله.

رأى نابليون:

ماذا صنع نابليون فى عصرنا الحديث؟..

وإنما نضرب المثل بنابليون لأنه حضر انقلابا فى الأطوار والعادات شبه نشأة الدين فى أيام الدعوة المحمدية ونعنى به الثورة الفرنسية، وحضر انحدارا فى الأخلاق والآداب يشبه الانحدار الذى أصيب له العرب فى أواخر عهد الجاهلية، وأسس دولة، ونظر فى سن قانون، وحاول ضروبا من الإصلاح.

نابليون قد طلق امرأته وأكره أحبار المسيحية على قبول هذا الطلاق، وقد اشتهرت له علاقات بخليلات متعددات، غير الخليلات المجهولات..

ونابليون يقول عن المرأة "لقد صنعت كل ما وسعنى أن أصنع لتحسين حال أولئك المساكين الأبرياء أبناء الزنى. إلا أنك لا تستطيع أن تصنع لهم الشيء الكثير دون مساس بقواعد الزواج، وإلا أحجم الناس عن الزواج إلا القليل".

"ولقد كان للرجل فى العهد القديم سريات إلى جانب الزوجات، ولم يكن أبناء الزنى محتقرين بين الناس احتقارهم فى اليوم، إنه لمن المضحك أن يحظر على الرجل الزواج بأكثر من واحدة فتحمل هذه الزوجة الواحدة، وكأن الرجل فى أثناء حملها أغرب أو عقيم.

"واليوم لا سريات للرجال ولكنهم يعاشرون الخليلات وهن أقدر على التبديد والإفساد.

"إنهم فى فرنسا يخولون النساء فوق حقهن من التعظيم وإنما الواجب ألا ينظر إليهن مساويات للرجال، فما هن فى الحقيقة إلا آلات لتخريج الأطفال.

"وقد تمردن فى إبان الثورة وعقدن الجماعات لأنفسهن وبدا لهن أن يؤلفن منهن فى الجيش.

"وكان لابد من صدهن، لأن المجتمع الإنسانى عرضة للخلل والفوضى إذا ترك النساء حالة الاعتماد على الرجال وهى مكانهن الحق فى الحياة. نعم إن المجتمع لوشيك إذن أن يتمزق بددا بغير انتهاء.

"وعلى جنس من الجنسين أن يخضع للآخر لا محالة، فإذا نشبت الحرب بينهما، فلن تكون كحرب الأغنياء والفقراء أو حرب البيض والسودا!..

"ألا وإن الطلاق بالمرأة دون مراء. فالرجل الذى يجمع بين زوجات لا يبدو عليه فى ذلك أثر كالأثر الذى يبدو على المرأة بعد التزوج بعدة رجال إنها تضمحل إذن كل الاضمحلال.

رأى لينين:

كذلك اعترف نابليون بالضرورات الزوجية فى العصر الحديث. فكيف اعترف بها "لينين" فى الثورة الكبرى بعد الثورة الفرنسية؟..

حل مشكلة الزواج بحل رابطة الزواج، فلا رابط بين الزوجين أوثق م رابطة الرفيقين فى الفندق أو الطريق. وليس أعجب ممن جعل الزوجات شريعة ملائكة إلا الذى جعله على هذا النحو شريعة عجماوات.

عقوبة الزوجات:

openkanz.com

ولا نختم هذا الفصل عن النبى فى حياته الزوجية قبل أن نعرض لعقوبة الزوجات فى الإسلام وللعقوبة التى اختارها ﷺ لأن عقوبة الرجل لامرأته فى حالة الغضب كمحاسنته لها فى حالة الرضى - كلاهما ميزان صادق لمكانتها عنده، ومكانة المرأة عامة فى تقديره.

والقرآن ينص على العقوبات السائغة فى حالة النشوز وعى العظة والهجر فى المضاجع والضرب، والتسريح بإحسان: ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٣٤].

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٣١].

والنبى ﷺ لم يطلق زوجة من زوجاته دخل بها وعاشرها ولم يضرب قط واحدة منهن، ولم يرو عنه قط أنه ضرب أو نهر خادما فضلا عن زوجة، بل روى عنه ما ينفى ذلك ممن عاشروه ولازموه.

بل كان ﷺ يكره ضرب النساء ويعيبه كما قال: "أما يستحى أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد؟.. يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره!"..

فما نص القرآن عليه من عقوبة الضرب فإنما نص لعلاج النشوز الذى لا يستقيم بغيره، وقيده المفسرون بشروط تمنع الإيذاء وتحصره فى القدر الذى يستقيم عليه الجزاء.

فغاية ما يفهم من ذكر الضرب بين العقوبات أن بعض النساء يتأدبن به ولا يتأدبن بغيره، وقد يعلم الكثيرون أن هؤلاء النساء لا يكرهنه ولا يسترذلنه، وليس من الضرورى أن يكن من أولئك العصبيات والمريضات اللائى يشتهين الضرب كما يشتهى بعض المرضى ألوان العذاب.

إنما العقوبة التى آثرها النبى ﷺ هى الهجر الطويل أو القصير، بعد العظة والعتاب الجميل.

والهجر - ولاسيما الهجر فى المضاجع - عقوبة نفسيه بالغة وليست كما سبق إلى بعضهم عقوبة حسية تؤلم المرأة لما يفوتها من سرور ومتعة فإن فوات السرور والمتعة أياما، لا يؤلم المرأة هذا الإيلام الذى يجعل الهجر فى المضاجع من أصعب العقوبات دون الطلاق.

قال الأستاذ رشيد رضا رحمه الله فى كتافه نداء للجنس اللطيف: "أما الهجر فهو ضرب من ضروب التأديب لمن تحب زوجها ويشق عليها هجره إياها، ولا يتحقق هذا بجهر المضجع نفسه وهو الفراش، ولا بهجر الحجرة التى يكون فيها الاضطجاع، وإنما يتحقق بالهجر فى الفراش نفسه. وتعتمد هجر الفراش أو الحجرة زيادة فى العقوبة لم يأذن بها الله تعالى وربما يكون سببا لزيادة الجفوة وفى الهجر فى المضجع نفسه معنى لا يتحقق بهجر المضجع أو البيت الذى هو فيه، لأن الاجتماع فى المضجع هو الذى يهيج شعور الزوجية فتسكن نفس كل من الزوجين إلى الآخر ويزول اضطرابها الذى أثارته الحوادث قبل ذلك. فإذا هجر الرجل المرأة وأعرض عنها فى هذه الحالة رجى أن يدعوها ذلك الشعور والسكون النفسى إلى سؤاله عن السبب ويهبط بها من نشز المخالفة إلى صفصف الموافقة وكأنى بالقارئ وقد جزم بأن هذا هو المراد، وإن كان مثلى لم يره لأحد من الأموات ولا الأحياء".

والذى نراه إن الأستاذ رحمه الله قد أخطأه المراد الدقيق من هذه العقوبة النفسية وأن الحكمة فى إيثارها أعمق جدا من ظاهر الأمر كله رآه الأستاذ.. فأبلغ العقوبات ولا ريب هى العقوبة التى تمس الإنسان فى غروره وتشككه فى صميم كيانه: فى المزية التى يعتز بها ويحسبها مناط وجوده وتكوينه..

والمرأة تعلم أنها ضعيفة إلى جانب الرجل، ولكنها لا تأسى لذلك ما

علمت أنها فاتنة وأنها غالبته بفتنتها وقـادرة على تعويض ضعفها بما تبعثه فيه من شوق إليها ورغبة فيها.

فليكن له ما شاء من قوة، فلها ما تشـاء من سحر وفتنة وعزاؤها الأكبر عن ضعـفها أن فـتنتها لا تقـاوم، وحسبـها أنها لا "تقـاوم" بديلا من القوة والضلاعة فى الأجساد والعقول:

فإذا قاربت الرجل مـضاجعة له وهى أشد حالاتهـا إغراء بالفتنة فى لم يبالها ولم يؤخذ بسحرها فـما الذى يقع فى وقرها وهى تهجس بما تهجس به فى صدرها؟

أفوات سـرور؟ أحنين إلى السؤال والمعـاتبة؟ كلا.. بـل يقع وقرها أن تشك فى صـميم أنوثـتـها وأن ترى الرجل فى أقـدر حالاته جـديراً بهيـبتـها وإذعانها وأن تشعر بالضعف ثم لا تتعزى بالفتنة ولا بغلبة الرغبة. فهو مالك أمره إلى جانبها وهى إلى جانبه لا تملك شيئا إلا أن تثوب إلى التسليم، وتفر من هوان سحرها فى نظرها قبل فرارها من هوان سحرها فى نظر مضاجعها.

فهذا تأديب نفس وليس بتأديب جسد، بل هذا هو الصراع الذى تتجرد فيه الأنثى من كل سلاح، لأنها جربت أمـضى سلاح فى يديها فارتدت بعده إلى الهزيمة التى لا تكابر نفسـها فيها. فإنما تكابر ضعفهـا حين تلوذ بفتنتها. فإذا لاذت بها فذلتها فلن يبقى لها ما تلوذ به بعد ذاك.

وهنا حكمة العقوبة البالغة التى لا تقاس بفـوات متعة ولا باغتنام فرصة للحديث والمعاتبة.

إنما العـقوبة إبطال العـصيان، ولن يبـطل العصيـان وبشىء كمـا يبطل بإحساس العاصى غاية ضعيفة وغاية قوة من يعصيه. والهجر فى المضاجع هو مثابة الرجوع إلى هذا الإحساس.

على أن عـقاب النبى لزوجـاته كان من الندرة بحـيث لا يذكر لـولا ما

تعود المسلمون من ذكر كل كبيرة وصغيرة فى حياته الخاصة والعامة على السواء، وهذا مع طول العشرة وتعدد الزوجات وكثرة الحوادث الجسام وقلة النسل الذى يصل المقطوع ويرأب المصدوع.

وكان معظم عقابه أشبه بعقاب نبى لمسلمات منه بعقاب زوج لزوجات. وهو فى حالتى عقابه وإحسانه إنسان على أكمل ما يكون الإنسان من رحمة وكيس وإنصاف.

وإذا حارت الأدلة فى قوام تلك الحياة الزوجية فالدليل الذى لا حار أن ينقضى نحو الأربعين سنة عليها وهى على ذلك الصفاء والولاء الذى لم يعرف مثله فى علاقات الرجال والنساء: هذه حياة زوجية لا تقوم على الحس والمتعة، ولن تدوم ذلك الدوام لو كان لها قوام غير مودة القلوب وراحة النفس وحب الخير ومبادلة العطف والتعظيم.

* * *

obeikandl.com